مُعاوية في الأساطير

سعيد الأفغاني

معنى الأساطير في معجماتنا العربية « الأحاديث لا نظام لها [1] » والأساطير «الأباطيل [2] » «سطر علينا : اذا جاء بأحاديث تشبه الباطل » ، « وهو يسطر ما لا اصل له اي يؤلف » وسطر عليه : زخرف له الاقاويل ونمقها ، وتلك الاقاويل : «الاساطير » والواحد من الاساطير : أسطور وأسطورة وإسطير وإسطيرة وإسطار وإسطارة [3] .

هذا الشرح إيضاح لما تعارف عليه الناس في العصور الاسلامية الاولى ، اما في اصل اللغة فالسطر الصف من كل شيء من شجر وكتابة وغيرها وسميت الكتابة سطراً لأن الاحرف والكلمات تكون فيها صفاً صفاً ، والحكاية اسطورة من حيث سرد حوادثها في نسق واحد بصرف النظر عن كونها حقاً أو باطلاً .

وأيٌّ كان فالاسطورة عند القدماء والمحدثين لا تخلو من زخرفة وباطل فاذا كان الأمر كذلك ففيم العناية بها وما جدوى بحثها ؟

ان هذه المخلفات من اساطير واحلام وقصص وخرافات تشيع بين العامة في مجتمعٍ ما لَتقفنا على ما عجزت عن وقفنا عليه كتب التاريخ التي تعنى في

---

(١) القاموس المحيط .

(٢) الصحاح .

(٣) لسان العرب والقاموس والصحاح .

الغالب بالرسميات وما اليها ، انا نلمس في هذه المخلفات الشعبية حركات الجماهير وخلجات نفوسها ونعرف منازعها واهواءها ورغباتها، مما لا يهتم به كثير من المؤرخين الا عرضاً ، فكل همهم من التاريخ ذكر ما يجري في مجالس الحكم وفي ميادين الحروب ، ولهذا نجد تواريخهم سجلات باسماء القياصرة والاكاسرة والملوك والحكام والقواد والوزراء ، قلما نرى فيها اهتماماً باحوال العامة والشعوب ، بل جعلوها سجلات للرغبات الظافرة التي حققت في عالم الواقع بحيث لا نلمح فيها صورة لرغبة مكبوتة او عاطفة حبيس ولا بياناً للتيارات النفسية التي تقاذفت افراد الشعب عامة او بعض طبقاته. وما أحكم قول (هـ . ب . تشارلتن) حين يعرض لتعبير الاساطير عن الواقع فيقول عن الملك آرثر وملوك الجن وغيرها من الاساطير الخيالية انها : « تمثل جانباً من الحياة النفسية الحقيقية وان لم تصور الواقع المحسوس من أوضاع الحياة ، ذلك لانها تشبع في الناس أهواء ونزعات لا يشبعها عالم الواقع ، فهي في ذلك كأحلام اليقظة أو أحلام النوم تحقق للحالم أمانيه التي لم يستطع تحقيقها في دنياه »[1] .

* * *

يقولون (ان التأليف العربي القديم طابعه الاستطراد) ويريدون أنه غير محكم التبويب والتنسيق فكثيراً ما نرى فوائد تاريخية في غير مظانها كما نجد أدباً في كتب التاريخ لا نصيبه في كتب الأدب ، فعلى الباحث اذاً أن يطوف بتراث الفقهاء والاطباء والمؤرخين واللغويين والمحدثين والمفسرين .. وما علينا في موضوعنا اليوم أن ننحرف نحن أيضاً عن كتب التاريخ السياسي وكتب الادب ونرود مجاهل المكتبة العربية علّ نورا يسعى بين أيدينا إلى غايتنا ، ولنُفد من هذه الظاهرة التي بالغوا في تعميمها: ظاهرة الاستطراد .

---

(١) « فنون الادب » ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود – القاهرة سنة ١٩٤٥ م (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

في دار الكتب الظاهرية بدمشق مخطوطتان لتاريخ دمشق الكبير للحافظ ابن عساكر ، [1] عكفت على تفليتهما شهوراً طويلة فوجدت فيهما عوناً على موضوعنا ولفتاً للذهن إلى الطريق اللاحب بعد أن كنت أسير في بنيات الطرق .

ومادة حديثنا كله مما يسمى (**الاحاديث الموضوعة**) التي لا أصل لها في اصطلاح المحدثين ، وعلم الحديث – كما يعرف المطلعون – من أنضج العلوم الاسلامية وأحكمها منهجاً وأقواها علمية ، لقد احتاط المحدثون كل الحيطة لفنهم وتشددوا في شروط الراوي والمرويّ عنه ، ولم يكتفوا بالقواعد المحررة لتصحيح السند كما توهم بعض الباحثين المحدثين رحمه الله ؟ بل عنوا بنقد المتن عناية بالغة ووضعوا له من الضوابط والمعايير ما لم يسلم معها الا كل حديث قوي بالغ الصحة ، أمّا الاحاديث المكذوبة على رسول الله فقد وسموها بالوضع وألفوا فيها المؤلفات ليحذرها الناس .

اذا كان من منهج المحدث اذا وصل اليه الحديث الموضوع أن يطرحه أرضاً ويمضي لطيته ، فان مهمة المؤرخ الباحث أن يبادر إلى التقاطه ويفيد منه ، ويسلط عليه الاضواء الكاشفة ويتساءل : من وضعه ؟ ما الحامل له على الوضع ؟ ما الملابسات التي أحاطت بوضع الواضع؟ ما تاريخه ؟ علام تدل هذه الاسباب والملابسات؟.. واذاً سيهتدي المؤرخ اذا وصل إلى أجوبةعن أسئلته إلى فوائد جمة في السياسة والاجتماع والاخلاق والعقائد وسائر أحوال المجتمع .

لقد ثارت في المجتمع الاسلامي خلافات أدت إلى فتن انتهت بقتل الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان،ثم كانت حرب الجمل فكان معظم جند علي من الكوفة ومعظم جيش عائشة من البصرة وتوارث المصران على أثرها إحنـاً وخصومات ، ثم كانت حرب صغيرة بين معاوية ومعه أهل الشام وعلي ومعه أهل العراق، وكانت منازعات قبلية إلى جانب المنازعات الاقليمية وإلى جانب الخلاف في المذهب حول الاحداث السابقة وحول زعمائها ، ولكل ذلك آثار

(١) ننقل في هذا البحث عن المخطوطة ذات الرقم ١٥/٣٣٨٠ .

في أدب ذلك العصر شعره ونثره . وأتى الوضاعون فأسهموا في وضع الاحاديث كلٌّ ينصر بما يضع من أحاديث ، هواه وعصبيته إما للبلد واما للنحلة واما للقبيلة واما للزعيم .. ولم يخف زيف هذه الاحاديث على أهل الحديث فنبهوا إلى كذبها ، لكنها راجت بين الناس وتلقف كلٌّ ما ينصر هواه وروّجه حتى عظم منها البلاء وأزاغت عقائد العامة وكان لها أثرها البعيد في السياسة والعقيدة .. ولم تكن الشام ولا خليفتها معاوية بمنجاة من وضع الأحاديث مادحة وقادحة على هوى الواضع . .

* * *

أول ما افتتح به الحافظ ابن عساكر كتابه : (باب ما جاء من أن الشام يكون ملك الاسلام) حديث فيه غمز ظاهر لخلافة بني أمية ، فقد نسب إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – هذا الحكم : (الخلافة بالمدينة والملك بالشام) [1] .

ويشاء كعب الاحبار أن يزج بالتوراة في هذا الميدان فيتحدث عن صفة رسول الله في التوراة وأنها :

« محمد بن عبد الله يولد بمكة ويهاجر إلى طابة ويكون ملكه بالشام »

فإن سألت : وما أرب كعب إلى ترويج هذا القول ، بل ما غرض المسعى اليهودي الذي استمر يعمل في خفاء حتى بعد موت كعب ؟ أجبتك باحتمال أن يكون الغرض التقرب إلى السلطان من جهة ، وتعظيم الشام التي فيها بيت المقدس من جهة ثانية ، وكان دليلي في هذا الاحتمال رواية ثابتة أصرح وأوضح في بيان شأن القدس فقد نسبوا للرسول هذا القول :

« هذا الامر « يعني الخلافة » كائن بعدي بالمدينة ثم بالشام ثم بالجزيرة ثم بالعراق ثم بالمدينة ثم ببيت المقدس ، فاذا كان ببيت المقدس فثم عقر دارها ولن يخرجها قوم فتعود اليهم أبداً » [2] .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر (دمشق : مطبعة روضة الشام) ١/٤٠ .

(٢) المصدر السابق .

وفسر ذلك الحافظ ابن عساكر قائلاً : (يعني بقوله « بالجزيرة » أمر مروان بن محمد الحمار وبقوله « بالمدينة » بعد العراق يعني المهدي يخرج في آخر الزمان بالعراق) وهذه الرواية متأخرة عن سابقتها ففيها اجمال لتنقل الخلافة بين الامصار حتى العهد العباسي وهو زمن وضعها فيما أجنح اليه .

وهنا أرى من الضروري أن أنبه على عمل السياسة الاموية في تربية العامة على إعظام شأن الخلافة والخليفة اعظاماً يذكّر بإعظام النصارى حينئذ رؤساءهم واعتقادهم أنهم يستمدون التأييد الالهي من السماء . ومن تذكر تاريخ الشام ايام الامويين لم يعدم من الحوادث براهين كثيرة ، فقد درج العامة في الشام على تقديس الخلفاء والتسليم الاعمى لعصمتهم ، وعمل رجال البيت الاموي ومن اليهم على ترويج هذه العقيدة حتى قاربت أن تكون من المسلمات عندهم فهذا يزيد بن عبد الملك أحب أن يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز وكانت سيرة عمر – كما نعلم – نشازاً في سير خلفاء بني أمية وأمرائهم ، سارها على رغمهم جميعاً ، فلما قال يزيد : سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز ، أحضروا له أربعين شيخاً فشهدوا عنده : (أن الخلفاء لا حساب عليهم ولا عذاب) قال الذهبي راوي الخبر (وكان طائفة من الجهال الشاميين يعتقدون ذلك) [1] .

ولا تظن أن مثل هذه العقائد في طائفة من الجهال الشاميين فحسب كما أراد الذهبي أن يقول ، بل الامر أوسع انتشاراً وأمد آفاقاً ، فهذا هشام بن عبد الملك نفسه ضاق باعمال ولي عهده الوليد بن يزيد حتى قال :

(لئن رضي الناس بالوليد بن يزيد خليفة ما أظن الحديث الذي رواه الناس : « ان من قام بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار » الا باطلا) [2] .

فهذا أثر السنين الطوال في أخذ الرعية بالدعاية الواسعة وسياستهم على

---

(١) تاريخ دول الاسلام للذهبي ١/٥٥ .

(٢) مخطوطة ابن عساكر ج ٥ الورقة ٥٢٤ .

تقديس أمرائهم وخلفائهم ، وأنت تدرك أن هذه الدعاية ردت عن الخلفاء ما لا ترده الجيوش ولا الحصون .

قلت آنفاً ان هذه الدعاية لم تقتصر على طائفة من الجهال الشاميين ، بل كانت واسعة الانتشار حتى حملها هشام بن عبد الملك فيمن حملها ، وأزيدك الآن أن الاشياخ أنفسهم حملوها معتقدين ، وحمّلوها طلبتهم معلمين :

سأل المنصور أبا عبد الله : (ما قولك في خلفاء بني أمية ؟) فقال : وما عسيت أن أقول فيهم ؟ ان من كان منهم لله مطيعاً وبكتابه عاملا ولسنة نبيه مُتبعاً فانه امام تجب طاعته ومناصحته ، ومن كان منهم غير ذلك فلا) فقال المنصور (جئتَ بها – والذي نفسي بيده – عراقية ، أهكذا أدركت أشياخك من أهل الشام يقولون ؟) قال : لا ، أدركتهم يقولون :

(ان الخليفة اذا استخلف غفر الله له ما مضى من ذنوبه) فقال المنصور (إي والله وما تأخر من ذنوبه) [1] .

ولندع ما في كلمة المنصور الأخيرة من فكاهة ، وقدّر ما قدّرت أنا حين قرأتها ، فقد كان المنصور مأخوذاً بإحكام بني أمية توطيد ملكهم ، فما استنبط المنصور سياسة الا وجد الأمويين قد ذهبوا بحظها وغنائها ، ودّ لو يستطيع ما استطاع بنو أمية من تجنيد كل شيء حتى العقائد والنوايا والهواجس .

* * *

ازاء هذا الظفر السياسي الذي أحرزه الامويون في ميدان الدعاية الشعبية ، كان خصومهم لا يألون جهداً في نقض ما يبنون ، لكن عمل أولئك كان كالسيل عارماً جارفاً ، فاحتاج خصومهم إلى عشرات السنين حتى أثمر عملهم الخفي الضئيل بعض الثمرات ، فصرنا نرى رد الفعل ظاهراً ايام العباسيين :

---

(١) الجزء السابق ، الورقة ٢/١٩٤ .

أخباراً تهدم أخباراً ، وأحاديث توضع تمحو أحاديث وضعت ، ونارا تملأ الآن بمن امتلأت بهم الجنة في أحاديث أمس ...

والحق أنه ليس بيدي من الاخبار والاحاديث مما وضع الوضاع ، ما يشيد بذكر بني أمية جملة ، الا حديثاً واحداً هو :

(لا تزال الخلافة في بني أمية يتلقفونها تلقف الغلمان الأكرة ، فاذا خرجت منهم فلا خير في عيش) [1] فإن أنا أردت الحديث الصحيح، رأيت في خطة النبي العملية أقوى دليل على حسن ظنه بهم ، فقد كان – صلى الله عليه وسلم – وصاحباه من بعده يطلبون للأعمال ذوي الكفايات ، فمن ثم ترى في عمالهم كثيراً من بني أمية وليس هذا مما نحن منه الآن بسبيل . انما أريد الاشارة إلى جملة من الأخبار المروية تحط من الأمويين أقبح الحط وتهبط بهم دركات في الشر فيبوؤون بين الناس بأشنع الآثام . ولا تنس أني أجعل أيام خصومهم العباسيين ظرفاً لوضع هذه الاخبار وترويجها .

جاء في كنز العمال [2] أن بجالة سأل عمران بن حصين : (حدثني عن أبغض الناس إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –) قال : (تكتم عليّ حتى أموت ؟) قلت : (نعم) قال : (بنو أمية وثقيف وبنو حذيفة) .

وروي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الرحمن بن عوف : (ألم يكن فيما يُقرأ : « قاتلوا في الله آخر مرة كما قاتلتم فيه أول مرة ؟ ») فسأله (متى ذلك ؟) فقال : (اذا كانت بنو أمية الامراء وبنو مخزوم الوزراء) [3] .

ويدخل مروان بن الحكم على معاوية فيكلمه في حوائجه قائلاً : (اقض حاجتي فوالله ان مؤنتي لعظيمة ، اني أصبحت أبا عشرة وأخا عشرة وعم

---

(١) الورقة ١/١٩٤ .
(٢) ٦/٦٧ .
(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢/٣٠٧ .

عشرة) فلما أدبر مروان وابن عباس جالس مع معاوية على سرير – قال معاوية :

(أنشدك الله يا بن عباس أما تعلم أن رسول الله قال : « اذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا أموال الله بينهم دولاً ، وعباد الله خولاً ، وكتابه دخلاً ، فاذا بلغوا تسعة وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من الثمرة ؟ » قال : اللهم نعم) [1] .

ولم يكتف الوضاع بما يعزونه إلى زمن الرسول وأصحابه من أقوال يرويها رجل عن آخر ، بل حمّلوا صخور الأديرة من ذلك وجعلوه بالعبرانية إيغالا في (الأسطورية) وترويجاً على العوام ، ولقد كان قتل الحسين أول ما يشنع المشنعون على بني أمية وأنصارهم جملة ، قال الاصمعي :

مررت بالشام على باب دير ، وان على حجر منقور كتابة بالعبرانية فقرأتها ، فأخرج راهب رأسه من الدير وقال لي : (يا حنيفي أتحسن تقرأ العبرانية ؟) قلت : (نعم) قال لي : (اقرأ) فقرأت :

أيرجو معشر قتلوا حسينا شفاعة جده يوم الحساب

فقال لي الراهب : (يا حنيفي هكذا مكتوب على هذا الحجر قبل أن يبعث صاحبك بثلاثين عاماً) [2] .

* * *

اذا أنت جاوزت اشتغال الوضاع ببني أمية جملة ، مدحاً وقدحاً ، إلى اشتغالهم بهم تفصيلاً ، وجدت فيضاً غزيراً ، ان هو آلمك وأمضك لملامح الكذب فيه فأنت واجد فيه متعة وتسلية ، وعرضاً لما في نفوس الجماهير حين

---

(١) مخطوطة ابن عساكر ٥ / الورقة ١/٤٨٨ وفيها (آيات الله) ولعلها محرفة عما أثبتناه .
(٢) الجزء السابق الورقة ١/٤٧٨ .

ترضى وحين تغضب ، وحين تضيق صدرا بالضغط على آرائها وعقائدها ، فتنفس عن نفوسها برد فعل خفي ، لكنه يتزايد برفق حتى يجرف كل شيء .

أول من اشتغلوا به من خلفاء بني أمية شيخهم ويعسوبهم معاوية بن أبي سفيان ، فلم يحظ أحد بمثل ما حظي به من روايات وأخبار تزج به في النار ، ولا نعم أحد بمثل ما حبته روايات الطرف الآخر من مقام عن يمين الرحمن في جنات عدن .

وليس بغريب أن يستأثر معاوية بهذا النصيب الوافي من الاساطير ، فقد اختطف الخلافة خطفاً وكان حظه من سخط شيعة علي بن أبي طالب وشيعة العباسيين من بعد أوفى حظ ، وهو الذي بدهائه وبأسه وحلمه ، وطد أركان ملكه فبقي قذى في أعين الشيعة مائة سنة، ثم زال الملك ولم يزل غيظهم عليه حتى اليوم فيما أحسب . فقد رووا عن عمار : (اذا رأيتم الشام اجتمع أمرها علي ابن أبي سفيان فالحقوا بمكة) [1] . وزعموا أن رسول الله قال : (اذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقتلوه) [2] .

وحملوا عليه تشنيعات كثيرة كقولهم : (قضى رسول الله والخلفاء بعده : « لا يرث مسلماً كافر ولا كافراً مسلم » وقضى معاوية وبنو أمية أن يتوارثا حتى زمن عمر بن عبد العزيز فرجع إلى السنة) [3] . وقد تقدم لك اباؤهم عليه اسم الخلافة فسموا إمرته ملكاً . ويضعون اسطورة أمد بن أبد أحد المعمرين ، فيذكرون أن معاوية استقدمه وجعل يسأله عما مر عليه في عمره الذي انقضى منه ثلاثمائة وستون سنة ، فيسأله عن هاشم فيقول : (نعم رأيته رجلاً طويلاً حسن الوجه يقال إن بين عينيه بركة أو غرة بركة) ويسأله معاوية عن جده أمية فيقول : (نعم رأيت رجلاً قصيراً أعمى يقال إن في وجهه لشراً أو شؤماً)

---

(١) كنز العمال ٦٧/٦ .

(٢) مخطوطة ابن عساكر ج ٥ الورقة ١/٣٦٢ .

(٣) الجزء السابق الورقة ١/٣٧٣ .

ثم يسأله : (هل رأيت محمداً ؟) فيغضب أمد وينتهر معاوية قائلا : (ويحك ، ألا فخمته كما فخمه الله فقلت : رسول الله ..) [1] . وريح الخصومة بادية في هذا الخبر ، ولست بحاجة إلى من يدلك على الحزب الذي وضعه حين أراد أن يسلسل الشر والشؤم من الجد الأعلى أمية ، ويقابله بالأغر المبارك – هاشم جد خصومه الهاشميين ، ثم تصوير معاوية بالممتلىء حقداً بحيث لا تسمح له نفسه بذكر النبي برسول الله حتى يدعوه الدعاء الجافي الجلف الذي رأيت .

هذا ما يقدمه لنا خصوم معاوية ، أما الدفاع فقد كان قوياً جارفاً كاسحاً ساحقاً كما يقول العسكريون ، فلئن كان الهجوم طلقات مسدس لقد كان الدفاع قنابل ذرية .

ولم تكتف هذه الجهة بالقضاء على الخصم بل اندفعت تزلزل الارض التي عاش عليها وتقلب منازله عاليها سافلها ثم تنسفها نسفاً ، وانا – عن عمد – أتكلم بلغة العسكريين فما وجدت تعبيراً أصدق فيما أنا بسبيله .

استخبرت ابن عساكر ونفضت تاريخه الضخم فأخرج لي من كنوزه نثارة ما حلمت بمثلها . لقد وضعت يدي على ما تضمر الجماهير من (ذخائر) ترد بها على نفسها الاعتبار ، ان كايدها خصم فأذعنت له حيناً من الزمن ، لا تلبث أن تبلغ في انتقامها مدى بعيداً . وأغلب ما سأقدمه لك وضع بعد موت معاوية ، بل بعد ذهاب دولة بني أمية ، وضع أيام العباسيين حين كان يتقرب المتقربون اليهم بذم معاوية وبني أمية ، وحين لم يكن يستطيع الشاميون ولا أنصار الامويين أن يبلغوا في العلن من خصومهم مبلغاً ، ولا يملكون لهم ضرا ، فانصرف ما عند الناس من ذخر مخبوء إلى الاساطير يرضون بها نفوسهم ويشفون غيظهم وينالون من عدوهم بطريق ملتو غير مباشر .

يعرف التاريخ الصحيح من شأن معاوية أنه كان من كتاب وحي النبي

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٠٣/٣ .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأنه ولي الشام لعمر بن الخطاب فكان يعرف له أموراً وينكر أموراً ، سأصنف لك ما بين يدي من هذه الروايات أصنافاً ثلاثة : صنفاً فيه أدعية الرسول له ، وصنفاً فيه الثناء عليه وتبشيره بالجنة ، وصنفاً جمع ما لا يخطر ببالك من غلو واغراق وسذاجة لا تروج الا عند العوام ، وهذا الصنف الثالث هو محط الشاهد .

١ ـ فأما الصنف الاول فيدخل فيه ما رووا أن رسول الله قال لمعاوية : (كيف بك لو قد قمّصك الله قميصاً ؟) يعني الخلافة ، فقامت أم حبيبة فجلست بين يديه فقالت : (يا رسول الله وان الله لمقمّص أخي قميصاً ؟) قال : (نعم ولكن فيه هنات وهنات وهنات)فقالت:(يا رسول الله فادع الله له)فقال : (اللهم اهده بالهدى وجنبه الردى واغفر له في الآخرة والأولى)[1] .

(ان الله ائتمن على وحيه جبريل وأنا ومعاوية ، وكاد أن يبعث معاوية نبياً من كثرة حلمه وائتمانه على كلام ربي ، فغفر لمعاوية ذنوبه ، ووفاه حسابه ، وعلمه كتابه ، وجعله هادياً مهدياً ، وهدى به)[2] .

وأبلغ من ذلك نكايةً في خصوم معاوية أن هؤلاء الوضاع الظرفاء نسبوا لعلي بن أبي طالب أنه قال :

(سمعت رسول الله باذني ـ والا صُمَّتا ـ يقول له : (أنت يا معاوية أحد أمناء الله ، اللهم علمه الكتاب ومكن له في البلاد)[2] هذا وعند ابن عساكر روايات غير هذه فارجع اليها .

٢ ـ وأما الصنف الثاني فغرائبه أكثر وأعجب ، والأحاديث هنا تصور معاوية بأنه (رجل الساعة) على حد تعبير سياسيي اليوم ، ثم تذهب أبعد من

---

(١) مخطوطة ابن عساكر ج ٥ الورقة ٣٤٠/١ وعن هذا الجزء النقول الآتية :
(٢) الورقة ٣٤٢ .

ذلك فتقيسه إلى أبي بكر وعمر ثم تجعل النبي يفضله عليهما وعلى الصحابة واليك التفصيل :

ذكر رسول الله يوماً الشام فقالوا : (كيف لنا بالشام يا رسول الله وفيها الروم ذات القرون؟)فقال : (أجل ان فيها أقواماً أنتم أحقر في أعينهم من القُراد في أستاه الابل) [1] وقال : (لعل أن يكفيناها غلام من غلمان قريش) وبيد رسول الله عصا فأهوى بها إلى منكب معاوية) [1] .

ثم نترقى ويترقى معاوية معنا درجة في الزعم الآتي :

استأذن رسول الله أبا بكر وعمر في أمر فقال : (أشيرا عليّ) فقالا : (الله ورسوله أعلم) فقال : (ادعوا معاوية) فقال أبو بكر وعمر : (أما كان في رسول الله ورجلين من رجال قريش ما يتقنون أمرهم حتى يبعث رسول الله إلى غلام من غلمان قريش ؟) فقال : (ادعوا لي معاوية) فلما وقف بين يديه قال رسول الله : (أحضروه أمركم فانه قوي أمين) [2] .

ثم ترقت الاخبار بمعاوية درجات عالية جداً يسندون روايتها إلى ابن عمر : تزعم أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لاصحابه يوماً : (يطلع عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة) فطلع معاوية ، فلما كان الغد قال مثل ذلك فطلع معاوية ، فلما كان بعد الغد قال مثل ذلك فطلع معاوية ، قال رجل : (هو هذا ؟) قال : (نعم هو هذا) ثم قال رسول الله: (يا معاوية أنت مني وانا منك ، لتزاحمنّي على باب الجنة كهاتين) [3] .

ولا يفوت الوضّاع كيد خصومهم كما فعلوا في أحاديث الصنف الاول ،

---

(١) الورقة ١/٣٤٦ .

(٢) الورقة ٣٤٢ .

(٣) الورقة١/٣٤٨ ثم عقب الحافظ بن عساكر بكلام على ضعف السند وسقوطه بما لا يعنينا هنا ، فما في المتن كاف لتوهين نسبه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وكذلك الامر في الروايات السابقة واللاحقة .

فهاهم أولاء يصعدون علياً منبر الكوفة فيخطب أهلها قائلاً :

(والله لأخرجنّها من عنقي ولأضعنّها في رقابكم ، ألا إن خير الناس بعد رسول الله أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم أنا ، ما قلت ذلك من نفسي ، ولأخرجنّ ما في عنقي لمعاوية : لقد استكتبه رسول الله وأنا جالس بين يديه فأخذ القلم فجعله في يده فلم أجد من ذلك في قلبي اذ علمت أن ذلك لم يكن من رسول الله وكان من الله عز وجل ، ألا وان المسلم من سلم من قصّي وقصته) [1] .

٣ – أما أخبار الصنف الثالث فمهزلة أولمبية ، لقد خرج الوضاع فيها عن مألوف العرب في الصدر الأول حتى في التخيل ، وهي أخبار إلى أن تلصق بآلهة اليونان وأنصاف آلهتهم أقرب من أن تنسب إلى الإله الحق ورسوله :

آ – (.. نزل جبريل على النبي ومعه قلم من ذهب ابريز فقال : « ان الله يقرأ عليك السلام ويقول لك « هذه هدية مني إلى معاوية فقل له يكتب به آية الكرسي بخط حسن ويشكلها ويعجمها ، [2] وأعلمه أني قد كتبت له ثواب من قرأها إلى يوم القيامة » فقال النبي « من لنا بأبي عبد الرحمن ؟ » فمضى أبو بكر الصديق فجاء ومعه محبرة وقرطاس فدفعه النبي (إلى معاوية) فكتبها وهو يبكي) [3] .

ب – (جاء جبريل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بورقة آس أخضر مكتوب عليها « لا اله الا الله ، حب معاوية بن أبي سفيان فرج مني على عبادي) .

ج – وذكروا أن رسول الله قال لأم حبيبة أخت معاوية : (... فإني

---

(١) الورقة ١/٣٤٠ .

(٢) الورقة ٢/٣٤٠ هذا ينبيك أنه تصدى لوضع الاحاديث والاخبار كل أحد حتى العوام ، والا فأيسر قدر من ثقافة كاف ليعرف صاحبه أن النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم الخلفاء الراشدون بالمدينة ماتوا ولم يكن بعد شكل ولا إعجام .

(٣) الورقة ٣٤٢ / ١ .

أحب معاوية ، وأحب من يحبه ، جبريل وميكائيل يحبان معاوية ، والله تعالى أشد حبا لمعاوية من جبريل وميكائيل يا أم حبيبة) [1] .

ورووا أنه قال لها يوماً (يا أم حبيبة هذا أخوك قد أقبل ، أما إنه يبعث يوم القيامة عليه رداء من نور الايمان) [2] .

ثم لم يقتصروا على هذه الكرامة كلها في الدار الآخرة ، فعجلوا له من فاكهة الجنة وسخروا جبريل في ايصالها فزعموا :

د ــ أن جعفر بن أبي طالب قدم (من بعض أسفاره ومعه شيء من السفرجل ، فأهداه إلى رسول الله والنبي يومئذ في منزل أبي بكر الصديق ، اذ دخل معاوية فقال النبي لجعفر « أنّى لك هذا ؟ » فقال : « أهداه اليّ رجل شاب حسن الهيئة في بعض أسفاري فأحببت أن أهديه اليك يا رسول الله » ، فأكل منه النبي وأخذ منه واحدة وأعطاها معاوية وقال : توافقني في الجنة بمثلها) وقال : (يا معاوية ، من مثلك ؟ أخذت اليوم من هدايا ثلاثة كلهم في الجنة وأنت رابعهم) ، (يا جعفر : هل تدري من المهدي اليك السفرجل ؟) قال : (لا) قال : (ذاك جبريل وهو سيد الملائكة ، وأنا سيد الانبياء ، وجعفر سيد الشهداء ، وأنت يا معاوية سيد الأمناء) [3] .

هـ ــ ثم عنيت هذه النزعة بخصوم معاوية ومبغضيه فخصتهم بكل نكر ، فزعمت أن رسول الله قال له : (الشاكّ في فضلك يا معاوية تنشق الارض عنه يوم القيامة وفي عنقه طوق من نار له ثلاثمائة شعبة ، في كل شعبة شيطان يكلح في وجهه مقدار عمر الدنيا) [4] .

---

(١) الورقة ١/٣٤٢ .
(٢) الورقة ١/٣٤٦ .
(٣) الورقة ١/٣٤٧ .
(٤) الورقة ٢/٣٤٥ .

وكأنهم لم يكتفوا بهذه الصورة على بشاعتها فولدوا بابداعهم صورة أكلح فزعموا :

و ـ أن النبي كان ذات يوم جالساً بين أصحابه اذ قال : (يدخل عليكم من باب المسجد في هذا اليوم رجل من أهل الجنة يفرحني الله به) فقال أبو هريرة : (فتطاولت لها) فاذا نحن بمعاوية قد دخل فقلت : « يا رسول الله هذا هو ؟ » فقال : « نعم يا أبا هريرة هو هو » يقولها ثلاثا ثم قال : « يا أبا هريرة ، ان في جهنم كلاباً زرق الاعين على أعرافها شعر كأمثل أذناب الخيل ، لو أذن الله لكلب منها أن يبلع السموات السبع في لقمة واحدة لهان ذلك عليه ، يسلطه يوم القيامة على من لعن معاويه » [1] أي هول والله ! .

ويبلغ الوضاع غايتهم في صورة مسرحية شائقة ينطلق بها الرسول ومعاوية معاً بين يدي الرحمن إلى الجنة :

ـ (اذا كان يوم القيامة دعي بالنبي ومعاوية ، فيوقفان بين يدي الله ، فيطوق النبي بطوق ياقوت أحمر ويسور بثلاثة أسورة من لؤلؤ ، فيأخذ النبي الطوق فيطوقه معاوية ثم يسوره بثلاثة أسورة ، فيقول له الله : « يا محمد ، تَسَخَّى علي وأنا السخي وأنا الذي لا أبخل ؟ » فيقول النبي : « إلهي وسيدي ، كنت ضمنت لمعاوية في دار الدنيا ضماناً فأوفيته ما ضمنته له بين يديك يا رب » فيبتسم الرب اليهما ثم يقول : « خذ بيد صاحبك انطلقا إلى الجنة جميعاً) [2] .

ثم يتوج الوضاع هذه الإحالات كلها بالذي ليس بعدها ، اذ نجد معاوية يستأثر بقرب عرش الله دون النبي نفسه ، ناعماً بمناجاة الله وتحيته سبعين عاماً وتزيد ، على حين يكون النبي بعيداً ينتظر معاوية ، فيزعمون :

---

(١) الورقة ٢/٣٤٨ .

(٢) الورقة ٢/٢٤٨ .

ح ــ أن رسول الله قال : (لا أفتقد أحداً من أصحابي غير معاوية ، فاني لا أراه ثمانين عاماً أو سبعين عاماً فاذا كان بعد ثمانين عاماً أو سبعين يقبل عليّ على ناقة من المسك الأذفر حشوها من رحمة الله ، قوائمها من الزبرجد فأقول: يامعاوية «فيقول: «لبيك يا محمد» [1] فأقول: «أين كنت من ثمانين عاماً ؟ » فيقول : « في روضة تحت عرش ربي يناجيني وأناجيه ويحييني وأحييه ويقول : هذا عوض مما كنت تشتم في دار الدنيا) [2] .

* * *

لم يقتصر هذا الغلو في معاوية على أهل الشام ، بل امتد إلى غيرها ، ولعل ذلك راجع إلى غلو الشيعة في نصر صاحبهم والطعن على خصمه ، غلواً حمل الفريق الآخر على مقابلته بغلو مثله ، وكان ذلك يكون بحيث يتصاقب الفريقان في بلد ، أو يكون بلد أحدهما على مقربة من بلد الآخر ، فينتج الاحتكاك تلك الثروة الطريفة من الأدب . هذه (واسط)مدينة الحجاج بقيت تنصر معاوية حتى بعد انقراض الدولة الاموية بمئات السنين ، في خضم من التشيع حولها ، وبالغت في ذلك حتى خرجت عن المعقول والمنقول معاً ، جاء في أحسن التقاسيم : [3]

(في أهل واسط بله وغلو في معاوية ، ووصف لي رجل بالزهد والتعبد ، فقصدته ــ وتركت القافلة خلفي وبت عنده تلك الليلة ، وجعلت أسأله إلى أن قلت : « ما قولك في الصاحب بن عباد ؟ » فجعل يلعنه ، ثم قال : « انه أتانا

---

(١) كذا هي في الرواية .

(٢) الورقة السابقة ، هذا وقد تكلم الحافظ ابن عساكر على كذب هذا الحديث ووضعه اسناداً ومتناً ، ونقل عن الخطيب أنه من وضع الوكيل وأن الاسناد رجاله كلهم ثقات الا الوكيل١٠هـ وأردت بنقل هذا تذكيرك بان الوضاعين يلصقون بما يضعون أسناداً مقبولة لاطعن فيها ، وأن النقد في هذا الباب نقد المتن نفسه . هذا وقد رواه الحافظ في موضع آخر برواية ثانية منكرة في اسنادها غير واحد من المجاهيل .

(٣) ص ٣٩٩ .

بمذهب لا نعرفه » قلت : « وما هو» ؟ قال : « يقول معاوية ليس مرسلا » قلت : « وما تقول أنت ؟ » قال : « أقول كما قال الله عز وجل : (لا نفرق بين أحد من رسله) ، أبو بكر كان مرسلا ، وعمر كان مرسلا ، (حتى ذكر الاربعة) ثم قال : (ومعاوية كان مرسلا) قلت : (الا تعقل ؟ أما الاربعة فكانوا خلفاء — ومعاوية كان ملكاً) فجعل يشنع عليّ وأصبح يقول : (هذا رافضي) فلو لم تدركني القافلة لبطشوا بي) .

ولهم في تكريم معاوية في الجنة مثل ما لغيرهم من تحزب العامة وعصبيتهم له ، وقد حدّث المقدسيّ نفسه أيضاً بما شهد منهم ، قال :

(كنت يوماً بجامع واسط واذا برجل قد اجتمع عليه الناس فدنوت منه فاذا هو يقول : حدثنا فلان عن فلان .. عن النبي : ان الله يدني معاوية يوم القيامة فيجلسه إلى جنبه ويغلفه بيده ، ثم يجلوه على الخلق كالعروس) فقلت له : (بماذا ؟ أبمحاربته عليا؟ رضي الله عن معاوية وكذبت أنت يا ضال) فقال: (خذوا عني هذا الرافضي) فأقبل الناس عليّ فعرفني بعض الكتبة فكركرهم عنيّ) .

* * *

ما عرفنا من عقيدة العامة بالشام في تقديس خلفائهم حتى قطعوا بالغفران لمن ولي الخلافة ثلاثة أيام يجعلنا لا نظن المبالغة في رواية المسعودي : (ان أنصار الامويين في الشام حلفوا للسفاح أنهم (ما علموا لرسول الله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى ولي العباسيون الخلافة) [1] .

والظاهر أن هذه عقيدة شامية ثابتة تجدها في التواريخ كما تجدها في الاساطير التي تسجل تقاليد الشعب وآراءه بكل صدق وأمانة . ولأمر ما قال سفيان

---

(١) مروج الذهب ٢/٢١٧ .

الثوري : (اذا كنت في الشام فحدث بفضائل عليٍ) [1] وهذه العبارة قاصرة جداً في التعبير عن الواقع ، فان ما عليه عامة أهل الشام حينئذ من عقيدة في علي ليقتضي تنشئتهم تنشئة (دكتاتورية) على خلاف ما ألفوا من تقاليد وأعراف في الاسلام ورجاله . ولست أعرف حكومة نجحت في إحكام دعايتها حتى ضمنت لدولتها خواطر الناس في اليقظة والمنام ، وأمنت شر من على الارض ومن في الارحام مثل حكومة الامويين. وانظر صورةطريفة من المجتمع الشامي أو الرأي العام الشامي حينئذ في مسجد دمشق وهو مرآة البلد ، يرويها ابن عساكر في تاريخه الجليل عن أبي يحيى السكري قال :

(دخلت مسجد دمشق فرأيت به حلقاً فقلت : هذا مسجد قد دخله جماعة من الصحابة فملت إلى حلقة في صدرها شيخ جالس ، فجلست اليه فقال له رجل أمامه : (من علي بن أبي طالب؟) فقال : (خفاق كان بالعراق ، اجتمعت عليه جماعة فقصد أمير المؤمنين معاوية ليحاربه فنصر الله معاوية عليه) قال السكري : فاستعظمت ذلك وقمت ، فرأيت في جانب المسجد شيخاً يصلي إلى سارية ، حسن السمت والصلاة والهيبة ، فقلت له : (يا شيخ أنا رجل من أهل العراق ، جلست إلى تلك الحلقة ... وقصصت عليه القصة وانتقاص علي ابن أبي طالب فقال : (في هذا المسجد عجائب ، بلغني أن بعضهم يطعن علي أبي محمد الحجاج بن يوسف فعلي بن أبي طالب من هو ؟؟) ثم جعل يبكي . فقمت عنه وقلت : (لا أستحل أن أبيت بهذا البلد) [1] .

ولم يزدد الامر في الشام الا تمكناً على الزمن ، ولعله نما وانتشر أكثر بعد انقراض بني أمية وحكمهم ، ولا أعزو ذلك إلا إلى بصر بني أمية بسياسة النفوس ونزعاتها واستهدائهم إلى التلطف بها ، فغذوا أدب العامة بما أرادوا ، ونشروا بينهم من الاحاديث والقصص والاخبار كل ما يؤيد دولتهم ويوهي خصومهم ، حتى شاب عليه الكبير ونشأ عليه الصغير وما غرس في الآداب

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١/٨٠ .

الشعبية فهيهات للسياسة العاجلة أن تقضي عليه بالعنف والقهر .

وأبلغ من الصورة التي رأيناها في مسجد دمشق صفحة حفظها ياقوت في كتابه (ارشاد الاريب) هي أبعد دلالة وأصدق تأريخاً لتقليد المجتمع الشامي ، يرويها رجل عاش عمره كله في دولة العباسيين ولم يشهد شيئاً من أيام الامويين ، هو أبو الحسن المدائني (١٣٥ — ٢٢٥ هـ) قال : قال لي رجل : (كنت بالشام فجعلت لا أسمع أحداً يسمى (عليا) ولا (حسنا) ولا (حسينا) وانما أسمع : معاوية ، ويزيد ، والوليد .. فمررت يوماً برجل جالس على باب داره وقد عطشت فاستسقيته فقال : (يا حسين اسقه) فقلت له : (أسميت حسينا ؟) فقال : (إي والله ، إن لي أولاداً أسماؤهم حسين وحسن وجعفر ، فإن أهل الشام يسمون أولادهم بأسماء خلفاء الله ، ولا يزال أحدنا يلعن ولده ويشتمه ، وانما سميت أولادي بأسماء أعداء الله فاذا لعنت فانما ألعن أعداء الله) فقلت له : (ظننتك خير أهل الشام ، واذا جهنم ليس فيها شر منك) [1] .

ونحن مدينون للمدائني ولياقوت بهذا الامر الاجتماعي المهم في تعبير الشاميين عن طوياتهم ومنازعهم بأسماء أولادهم ، وليس بعد هذا في صدق التعبير غاية .

والظاهر أن التقاليد الشامية هذه تسربت فغزت بلداناً مجاورة سلباً وإيجاباً ، وليس أمتع من تاريخ هذه الآداب الشعبية نشأتها وتطورها ورحلتها وتأثرها وتأثيرها . نحن نعلم أن وكر العداوة لمعاوية هو شيعة العراق الذين أغرقوا وبالغوا في الحط منه وفي الرفع من خصمه الامام علي ، حتى خلقوا في نفوس من ليس على رأيهم من مواطنيهم رد فعل ، وغرسوا فيها عطفاً زائداً على معاوية ، والآداب تتلاقح في أقاليم الأمم المتجاورة فكيف في أوطان الامة الواحدة ، والعراق

---

(١) ارشاد الاريب ١٢٨/١٤ (طبعة فريد رفاعي) ، ويبلغ الخبر المأمون فيقول : (لا جرم قد ابتعث الله عليهم من يلعن أحياءهم وأمواتهم ويلعن من في أصلاب الرجال وأرحام النساء . يعني الشيعة .

والشام منذ أقدم العصور بينهما أواصر اقتصادية وسياسية واجتماعية والناس في أسفار وتجارات بينهما ، فلما كان الفتح الاسلامي جمعهما الدين الواحد والحاكم الواحد إلى جانب العرق الواحد واللغة الواحدة ، فصارا في حكم الاقليم الواحد ، وكان أول ما تفاعل بينهما الآداب خاصة ، فأصبح من المتوقع أن نجد آثاراً للتقاليد الشعبية الشامية في العراق ، وقد مر بنا شأن أهل واسط في العصبية لمعاوية فانظر الآن زيادة عليه كيف تسرب إلى العراق حب معاوية . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل :

(كنت أحبو ، فأخذ أبي بيدي وعبر بي الجسر (ببغداد) فمضى إلى جامع الرصافة ، فلما انتهينا اليه رأينا حبابا فيها السويق والسكر والماء المبرد بالثلج ، وخدماً في أيديهم الطاسات يقولون للناس : (اشربوا على حب معاوية ابن أبي سفيان) فقلت : (يا أبه ، من معاوية ؟) فقال : (هؤلاء قوم أبغضوا رجلاً لم يكن إلى الطعن عليه سبيل فأحبوا أعداءه) [1] .

* * *

ان عشرين سنة ولي فيها معاوية الشام جعلته يخبر نفسية الشاميين ويقتلها دراسة فعرف كيف يتأتى لها برفق حتى صارت أطوع له من بنانه ، وجعل يفجؤه الامر العظيم يطيش له الحليم فيلقاه هادئاً غير محتفل ، مطمئناً إلى تعلق رعيته واخلاص جنده له، هذا الجند الذي تعهده بدعاية محكمة وارتاح إلى غفلته وطواعيته وسذاجته أحياناً حتى ضرب المثل بطاعة أهل الشام وجند الشام فصار يُشيع فيهم ما لو تحدث به إلى غير شامي لضحك منه ، وحسبك أن تعلم أنه رباهم على عقيدة أن عليا وأصحابه تاركون للصلاة [2] . لم يفت معاوية الداهية الاريب سلطان القصص على النفوس ، فاتخذ قاصاً يذكر الناس بعد صلاة الصبح ، وكان هو يستمع إلى قصصه الذي يبدأ بذكر الله واليوم الآخر ،

---

(١) مجلة الشرق ٢٦/٤١٤ نقلا عن تاريخ بغداد لابن النجار .
(٢) تاريخ الطبري ٤/٢٩ - ٣٠ .

ثم يخوض في السياسة فيذكر الخليفة وحزبه ويثني عليهم ويدعو لهم ، ويذكر خصومه ذاماً لهم وداعياً عليهم [1] . ولم يكن يتورع القصاص عن الاختلاق والكذب بما يرضي السلطان ولو كان ذلك الاختلاق في الدين والكذب على سيد المرسلين ، وكأن الغاية – وهي توطيد السلطان – بررت الوسيلة على ما يزعمون . ولقد روّض معاوية رعيته في الشام على استحسان ما يستحسن واستهجان ما يستهجن حتى أصبح عندهم أمر الخليفة في كل شيء من أمر الله . هذه نزعة القوم التي نشؤوا عليها في العصر الاول ، والصحابة وأهل العلم والرأي ، ورؤوس الناس وعقلاؤهم لا يزالون أحياء متوافرين ، فما ظنك اذا رحل هؤلاء وجرى على آثارهم ذرياتهم من بعدهم ، جيلاً بعد جيل ، فورثوا عن أوليهم نزعاتهم السياسية والحزبية دون أن يكون لهم علمهم ولا عقلهم ولا سؤددهم ؟ والخلفاء ودعاتهم مع ذلك دائبون في غرس ما يرضي الدولة في نفوسهم ، فيترعرعون منذ نعومة أظفارهم وقد ألفوا شتم علي وآل بيته مع ذكر الله على منابر الشام ، وغذي به أدبهم الشعبي وما يتناقلون من من أخبار وعقائد وأساطير ، وأنت تعلم أن العامة تقيس للسلطان في هواه ذراعاً كلما قاس اصبعا .

ان هذه الاساطير أعني الاحاديث الموضوعة كلها في الفضائل والمثالب والمغيبات أخبار بعضها وضع لحوادث انقضت قبل زمن الوضع ، وبعضها حل في عقائد العامة على أنه لم يقع بعد ، لكنه آت لا ريب فيه كعقيدة السفياني ، وممن يعايشنا اليوم خلق كثير على هذا الاعتقاد ينتظر خروج السفياني . انها جميعاً تخضع لسنة فطرية جعلها الله من سنن الطبيعة ، وهي ما يعبر عنه في الجغرافية الطبيعية بـ (الائتكال والتراكم) ، والحق أن الحياة كلها على هذه الارض ينالها ما ينال الارض نفسها من ائتكال في نواح وتراكم في أخرى ، لا أستثني من ظواهر الحياة شيئاً لا المادية ولا المعنوية ، فالعقائد والاساطير والآداب ، وحتى الدين في نفوس الناس ، كل ذلك يعنو لسنة الله هذه ويعتور أجزاءه ضمور في جهات ونمو في جهات ، وانظر على سبيل المثال الاسلام

(١) الصفحة السابقة

كما هو في الكتاب العزيز وكما بلغه صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام وفهمه الصحابة الاولون ، والاسلام كما يتصوره العامة وكثير من الخاصة في أية بقعة شئت من العالم الاسلامي اليوم، ولأمرٍ ما كان المجددون الذين يقيضهم الله لهذا الدين بين الفترة والفترة يعنون أولَ ما يعنون بازالة تلك الطبقات المتراكمة على جوهر الدين حتى يجعلوه للناس محلوّاً كما أنزل الله ، وقلما كفت حياة الواحد منهم لتنظيف النقطة التي ركز فيها جهوده .

والذي أريد قوله هنا إن هذا الركام من المغيبات التي وصلت الينا بدأ خبراً ذا زوائد عن حادث وقع ، ثم أضاف اليها الرأي العام مع الزمن ما غمره من شعور نحوه ، ومن رغبات يتمنى أن لو وقعت ، وأمور يود أن لم تقع ، ثم صهر ذلك كله في بوتقة المغيبات ، خادعاً نفسه أن ذلك سيقع على هذا التفصيل، فعوّض بذلك على نفسه — من حيث لا يشعر — إخفاقاً أو خسائر في أنفس أو منافع وآمال .

* * *

وبعد فهذا معاوية كما تجلّيه المغيبات من الاساطير والموضوعات ، ولئن كنا في دراستنا حكمنا عليها بعدم الصحة وهو ما لا يشك فيه باحث،إن ما تدل عليه صحيح صحيح.لقد كان معاوية — رضي الله عنه — حاكماً واسع النفوذ في حكمه ، يحظى بالشعبية الواسعة في مجتمعه ، محبوباً إلى أبعد حدود المحبة ، ولا أدل على ذلك من رواج هذه الاساطير في المجتمع الشامي ، ووجدانها السبيل إلى تخليدها في النفوس والسطور ، ثم بقائها حتى زماننا هذا نعتبر بها وننشىء حولها الدراسات ، ولقد أمدتنا بما لا سبيل للتاريخ الرسمي إلى الحظوة به، فهي أصدق منه دلالة على تيارات المجتمع في عفويتها. ولئن أسقط المحدثون الاستدلال بها جميعاً،إن على الباحثين في الادب أو السياسة أو الاجتماع أن يعضوا عليها بالنواجذ لأمانتها في الدلالة على نفسية المجتمع . والشعب يعبر عن شعوره أحياناً صريحاً واضحاً على خط مستقيم كما يقولون ،

وذلك أيام الرخاء والحرية ، وتارة في رمز والتواء اذا نزل بالمجتمع من الارهاق والعسف ما لا قبل له به، فينفس عن كبته في قصص وأساطير وأمثال قد تكون أبلغ في الدلالة على حاله مما كان أرسله صريحاً في أيام الرخاء ، وله بهذا تعويض عما فقد من حرية وطمأنينة ، كما تعوض الاحلام لصاحبها ما عجز عن تحقيقه حال اليقظة ، ومن هنا كانت الاساطير مصدراً يجب أن يبحث فيها بعناية وأن تستنطق بحذق وحيطة وإحكام* .

* ألقي هذا البحث في ١٩٧٤/٤/٢٤ في (المؤتمر الدولي لتاريخ الشام) الذي عقد في عمان من ٢٠ إلى ١٩٧٤/٤/٢٥م وخصت هذه المجلة بنشره .